وقفات شخصية مع العم والأستاذ أبي سليم

1431 - 1348 هجري , 2009 – 1930 ميلادي

بقلم د. مأمـــون مُـــبّـــيض[1]

البحث عن كتاب:

لا أذكر اسم الكتاب الذي كنت أبحث عنه، ولعله كان كتاب "خصائص التصور الإسلامي" لمؤلفه سـيد قطـب رحمه الله تعالى، إلا أن الأستاذ المعلم هشام الجزائري، وهو أحد إخواني وأساتذتي الذين أثق بهم، أشار علي بزيارة مكتبة "دار الفتح" في منطقة الحجاز [2]، وأن أطلب الكتاب من صاحبها الأستاذ "أبو سليم" آملاً أن أجـد عنـده الكتـاب المطلوب.

دخلت مكتبة "دار الفتح" وكان الممر محاطاً بالكتب من الجانبين، فلم أجد أحداً في المكتبة سوى الكتب هنا وهناك، فناديت "السلام عليكم" وإذا بصوت رخيم هادئ مطمئن يخرج من خلف صفّ مرتفع من الكتب التي وضـعت علـى الطاولة في آخر الممر : "وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته".

ومن بعد الصوت أطلّ وجه مدوّر أبيض مشوب بحمرة، وجه رجل مطمئن الهيئة كصوته، وقدرّت حينها أنه كـان في الخمسينات من العمر.

قدمت نفسي لهذا الرجل، وذكرت له اسم الأستاذ هشام الذي نصحني بزيارة المكتبة والسؤال عـن الكتـاب... فعرّف الرجل نفسه بأن الناس ينادونه "أبو سليم"، وقال لي: مرحبا بكل من يرسلهم إلينا الأستاذ هشام أو "أبو ياسر".

سألت الأستاذ أبا سليم عن الكتاب الذي أقصد، وقبل أن يجيبني عن سؤالي، أخذ يدردش معي ليتعرف عليّ وعلى دراستي واهتماماتي... وبدت عليه، أو هكذا شعرت، علامات السرور عندما علم أنني في السنة الثانية من كلية الطبّ في جامعة دمشق. وأخذ الأستاذ أبو سليم بالحديث عن مفاخر الأطباء المسلمين الأوائل مـن ابـن سـينا وابـن النفـيس

والزهراوي... وبعد أن تحدث عنهم بالكثير من الإيجابيات، صمت برهة ووضع يده على خدّه وعقـّب قـائلا "إلا أن علينا أن نحسن الاختيار فيما نأخذ عنهم، وفيما ندعه لهم".

ومن ثم، وبعد أشهر من تعرفي وترددي المتكرر على مكتبة أبو سليم، عرفت أسلوبه الموضوعي في رؤية إيجابيـات الناس من مؤلفين ومفكرين، فهو لا يسمح لإعجابه بهم أو ببعض مؤلفاتهم، أن يمنعه من التنبيه لبعض مآخذهم أو هفواتهم أو أخطائهم غير المتعمدة أو المتعمدة أحيانا!

ليس في كل يوم نلتقي بشخص نعجب به فيترك بصماته الواضحة في حياتنا، إلا أن الأستاذ أبا سليم كان من هـذا النوع، وهذا على الأقل لمن يحب أن يتأثر بالآخرين، ويستفيد مما عندهم.

إنك تشعر عند تعرفك على أبي سليم بأنك أمام رجل "مختلف" عن بقية الرجال، بأنك أمام رجـل "متميّـز"، وإن كان هذا بطريقة لا تعرف كيف تفسّرها بداية. والغالب أنك قد لا تفهمه أو تتعرف عليه حقيقة من اللقـاء الأول، وإن كان التأثر حاصلا من الدقائق الأولى. وهذا التأثر ليس فقط مما يقوله أبو سليم، وإنما أحيانا بما يسكت عنه. حيث تشعر أحيانا أن لديه كلاماً يقوله في الموضوع المطروح، إلا أنه ولسبب "وجيه" عنده يفضل عدم الخوض بـالأمر، والانتقـال لجانب آخر يراه أكثر أهمية وفائدة!

ويسرني أن أقول أنني لم أخرج من مكتب دار الفتح في زيارتي الأولى إلا ومعي الكتاب الذي أتيت أبحث عنه!

الموجّه والمعلم ومكتبة لا كالمكتبات:

يصفُ من يعرف أبا سليم حق المعرفة، الأستاذ الفاضل عصام العطار فيقول فيه " لكنَّ الخطَّ الأصيلَ المستمرَّ الأبرزَ في حياته إنّما هو خطُّ التربيةِ والتعليم ، والصفةَ الحميدةَ المتقدّمةَ في صفاتِه إنّما هي صفةُ الأبِ أو الأخِ المعلِّم المربِّي". [3]

وتمر الأيام ويتكرر ترددي على مكتبة الفتح أو كما أصبحنا نسميها "مكتبة أبو سليم".

كنت قبل مكتبة أبي سليم أنتقي الكتب بشكل فرادى كتابا بعد كتاب، ولكن بعد التعرف على أبي سليم، أصبحت القراءة أكثر تنوعا، ولكن، وهذا الأهم، أكثر ترابطا وبحيث ينتقل الإنسان ربما من المهم، ومن ثم للهام جـداً، وبحـسب الحاجة الفردية للقارئ، وما يحتاجه لتتكامل عنده جوانب المعرفة، فلا يطغى جانب على حساب الجوانب الأخرى.

كان أبو سليم دوما عنده في ذهنه وفي مكتبته ما ينصح به أو يشير إليه، في كثير من الأحيان مما هـــو معـــروض في المكتبة، وفي بعض الأحيان مما هو غير معروض للبيع، وكأن العم أبا سليم كان ينتقي لبعض الكتب قراءها! وكان يقـــول أحيانا "هل قرأت هذا الكتاب؟" أو "ماذا قرأت للمؤلف الفلاني؟" ومن ثم يشير لبعض التسلسل في أولوية قراءة بعـــض الكتب أو المؤلفين أو الأفكار المطروحة... وكم عرّفني ونصحني جزاه الله خيراً ببعض الجوانب الهامة في عـــالم الكتـــب والأفكار.

تحدثت معه كثيراً عن كتب وأفكار مالك بن نبيّ وأنور الجندي وسيد قطب وعباس محمود العقاد ومصطفى صادق الرافعي وعصام العطار وجودت سعيد ومحمد عبد الله دراز وفاخر عاقل ووهبة الغاوجي الألباني ومحمد أحمـــد الراشـــد وسعيد رمضان البوطي وعبد القادر عودة ووحيد الدين خان وأبو الأعلى المودودي وطه حسين وعلي الطنطاوي ومحمد الغزالي ويوسف القرضاوي ومحمد قطب وعائشة عبد الرحمن بنت الشاطئ وناصر الدين الألباني وزهير الشاويش وعماد الدين خليل ومصطفى السباعي ومحي الدين القضماني ومحمد إقبال وعبد العزيز بن باز ومحمود شـــاكر ومحمـــد متـــولي الشعراوي وأبو الحسن الندوي وعمر عبيد حسنة وحسن الترابي ونجيب الكيلاني وعدنان زرزور وعبد الكـــريم زيـــدان ومحمد أسد وشوقي ضيف وجبران خليل جبران وأدونيس... هذا غير القدامى من أمثال ابن تيمية وابن القيم وأبي حامد الغزالي وابن حزم والماوردي وابن كثير والقشيري وعبد القادر الجيلاني وابن خلدون والبخاري ومسلم والـــشافعي وأبي حنيفة وأحمد بن حنبل والإمام مالك والنووي وغيرهم.

ومع هذا التنوع في القراءة كنت أسمع من الأستاذ أبي سليم بشكل صريح أحيانا، وبمجرد إشارات عابرة في أحيـــان أخرى، عن أهمية التخصص والتعمق في فهم فن من الفنون أو كاتب من الكتاب أو فكرة من الأفكار.

ويصف الأستاذ عصام العطار هذه المكتبة فيقول في مقالته عنها "أما مكتبته التي أنشأها في دمشق قبل أن يغترب عن دمشق : « دار الفتح » ، فلم تكن مجرد مكتبة كبيرة تجمع عدداً كبيراً من الكتب فحسب؛ ولكنها كانت قبـــل ذلـــك مدرسة ثقافية حرّةً أمينة راقية، يدخلها الطلبة والتلاميذ وشداةُ المعرفة والثقافة فلا يجدون في صاحبها (أبي سليم) التـــاجرَ بائعَ الكتب الذي يهمه تصريف بضاعته بأيّ شكل؛ بل يجدون فيه قبل ذلك الأستاذَ المعلّمَ المثقّف الناصح: هذا الكتـــابُ يفيدُك في دراستك أو بحثك ، هذا الكتابُ لا يفيدك كثيراً، هذا الكتابُ يوجدُ في موضوعه ما هو أفضل منـــه. ويـــسألُه سائلون في مشكلاتٍ دراسية، ويسأله سائلون في مشكلاتٍ شخصية، فيجدون عنـــده الـــصدر الرحـــب، والمـــشاركة الوجدانية، والرأيَ السديد، والعون العمليّ حيثما أمكنَ العون .. لقد كانت مكتبة دار الفتح مدرسةً فَذَّة، مدرسةً ثقافيةً واجتماعيةً وخلُقية، روحُها وفكرُها وأداتُها التنفيذية بالدرجة الأولى أبو سليم" [3]

كنتُ، وكغيري من الشباب في دمشق ومن المدن الأخرى، نزور مكتبة أبي سليم لنأخذ النصح والمشورة ليس فقط في الكتب والأفكار والأدب، وإنما حتى في حياتنا الفكرية والدراسية والمهنية... وحياتنا الخاصة أحيانـــا. كنـــت تـــشعر بكلماته وتوجيهاته ونصائحه، أنها نصائح أب حنون لأبنائه، وبأنه حريص عليهم وعلى تشكلهم الفكـــري والتربـــوي. كنت تشعر مع كلمات أبي سليم عدم افتراق القول عن العمل، وتشعر أنك أمام إنسان ارتفع إلى مستوى تطبيق المعـــاني التي يتحدث عنها في حياته الواقعية. كان يميل في نفسه، وللنخبة من الناس من حوله إلى الأخذ بعزائم الأمـــور وعـــدم الركون إلى الرخص، وإن كان لا يعارض هذا لعامة الناس. ولعل هذا يفسّر ما يجعل بعض الناس، ممن لا يعرفون حيـــاة الأستاذ، ينتقدون منهجه وجديته وصرامته في الحياة.

ولعل في هذا المعنى كتب عنه الأستاذ الفاضل المحقق زهير الشاويش صاحب المكتب الإسلامي للتحقيـــق والطباعـــة والنشر والتوزيع في بيروت مقالة عن أبي سليم عنوانها "الداعية بطريقته الخاصة، من قرون ماضية" [4].

التخصص النفسي:

لقد كان للعديد من الأساتذة والعلماء فضل عليّ في تزكية وتشجيع توجهي لدراسة الطب النفسي والتخصص فيه، وكان من جملة هؤلاء الأستاذ أبو سليم. فعندما علم باهتمامي بجوانب النفس البشرية، وربما احتمال تخصصي في الطـــب النفسي، أشار عليّ ببعض الكتب المفيدة في هذه العلوم النفسية والاجتماعية. وسُرّ كذلك عندما عرف بعزمـــي علـــى التوجه إلى أوروبا للتخصص في الطب النفسيّ، وكان لتوصياته الأثر الطيب في حياتي الدراسية والخاصة. ففـــي الجانـــب التخصصي كان توجيهه دوما بالرجوع إلى أمهات الكتب في الفن الذي يدرس فيه الإنسان، وقد أخذت بالكثير مما نصح به ووجه إليه.

ومما لم أطبق مما نصح به، ولو كنت طبقت لكان عندي الآن ربما من أكبر القواميس والمعاجم الطبية النفسية، فقـــد أشار عليّ مرة أن أحاول وأنا في الغرب وأثناء تخصصي وكلما مرّ معي مصطلح نفسيّ جديد أن أكتبـــه علـــى بطاقـــة صغيرة، شارحا أصل الكلمة ومعناها بالعربية واللاتينية، ومن خلال الزمن سيتجمع لديّ مادة علمية غزيرة جديرة بالنشر والطباعة. صحيح أنني لم أطبق هذه النصيحة بالذات إلا أني أخذت بالنصائح الأخرى التي جمعت لديّ مادة علمية طيبة، أو هكذا أحسبها، مما وضعته في عدة كتب وصلت للعشرة كتب، وهناك ما يتبع، إن كان في العمر بقيّة!

ومما نصح به الأستاذ أبو سليم أن أخطب بنت الحلال (الزواج) قبل توجهي للغرب، مما يحميني من مغريات الغرب ومفاتنه، وقد أخذت بهذه النصيحة ولله الحمد، ونعمت بالزواج من الزوجة الفاضلة الأديبة وفاء، والتي بالإضافة إلى رعاية

وتربية أبنائنا الثلاثة، تعمل في الأدب حيث نشرت العديد من الكتب القصصية والأدبية، بالإضافة إلى موهبتها في الرســـم المائي، وهي حفظها الله نعم الرفيقة في مغترب أوروبا.

رجل القضيّة والمهمّات!

عندما تكون مع الأستاذ أبي سليم، كنتَ تشعر دوما، ومهما كانت المناسبة، أنك مع رجل صاحب رسالة، لا يكاد ينفك عنها ولا هي تنفكّ عنه. تشعر أنك أمام رجل ممتلئ بقضيته، وهي الإسلام وعلو الإسلام وعزة الإسلام.

وعندما أخذت طريقي في الغرب، وقطعت أشواطا في تخصصي في الطب النفسي، تيسّرت لي ظروف اللقاء بالأستاذ أبي سليم مرات متعددة في أوروبا، ومرة زرته في منـــزله في عمان، وكان قد غادر دمشق وعاش بقية حياته الطيبـــة في العاصمة الأردنية.

وكم سعدت، وغيري من الشباب الذين تربوا على يد الأستاذ أبي سليم، كم سررنا باللقاء به مجـــددا في أوروبـــا، فكان في أوروبا وكما عهدناه في ربوع دمشق رجلاً صلبا، ممتلئا بقضية الإسلام وبلاده والمسلمين. وبالرغم من خروجه من المكتبة التي حُرم منها، وبالرغم من عدم وجود نسخ الكتب الكثيرة من حوله، إلا أنه كان يتابع النـــصح والتوجيـــه والتسديد لإخوانه ولطلابه ولمحبيه.

وحتى عندما زرته في بيته في عمان عام 2007، وقد أعياه المرض وتقدم السن، فكان كما هو في صـــلابة العزيمـــة والهمّة العالية، وكما هو في حرصة وتفانيه في خدمة إخوانه ومن حوله وكل من يلجأ إليه.

ومما نصحني به العم أبو سليم، وأنا ممتنّ له بهذا الفضل، أن أتصل فور وصولي لأوروبا بالأستاذ والمـــربي والمفكـــر والأديب الإنسان عصام العطار، وقد قمت بهذا التواصل مع الأستاذ عصام حفظه الله مـــن الأيـــام الأولى لوصـــولي إلى الغرب، فكان هذا، ولا يزال، متنفسا واسعا لي وأنا في هذه الديار وهذه الحياة.

ومن نصائح الأستاذ أبي سليم الأخيرة لي ومباشرة قبيل سفري للدراسة في الغرب، أن لا تطيب لي ولا لغيري مـــن الشباب حياة الغرب، وأن لا تمنعنا صعوبات الحياة المادية في بلادنا، وكما قال هو "طوابير الخبز... وطوابير أناني الغـــاز" أن تصرفنا عن العمل لبلادنا، وعن العودة إليها للمساهمة في بنائها، وأن نذكر على الدوام بأن لدينا واجبا نقوم به نحـــو بلادنا وأهلنا وأوطاننا.

وقد كانت هذه هي أمنيتي وأمنية الكثيرين ممن أعرف من الأساتذة والإختصاصين والدارسين والعلماء في الغرب والشرق، أن نعود لبلادنا الحبيبة دمشق وربوع الشام، لنساهم في ضمّ جهودنا، المتواضعة، للعاملين المخلصين هناك من أجل النهضة الشاملة في بلدنا ومجتمعنا، إلا أن سير الأحداث وتطورها وتأزمها وخاصة فيما يتعلق بحقوق المواطن وحقوق الإنسان، منعت الأستاذ أبا سليم ومنعتني ومنعت الكثيرين من أمثالنا من العودة الحرّة الكريمة للبلاد.

إن جهودنا التي نضعها في الغرب من خلال تخصصاتنا ومعارفنا، لكم نـُسرّ أن نضعها في خدمة بلدنا وموطن مولدنا ومنشئنا. صحيح أن الله تعالى لم يتعبدنا في أرض دون أرض، ومكان دون آخر، إلا أنّ بلد الإنسان وموطنه أحبّ إليه من كل الأرض، وخاصة الشام، وما أدراك ما الشام.

وكما يقول أستاذنا الفاضل عصام العطار معبّرا بلغته الشاعرية المؤثرة ما يلهج في قلوب الكثيرين [5]:

يـا شـامُ يـا شـامُ يا أرضَ المحبينا هـان الـوفاءُ وما هان الوفا فـينا
نحـيا على الـبعد أشـواقاً مـؤرقـة لا الوصلُ يدنو ولا الأيام تسـلـينا

قصّ الصخر!

ومما يسرني ويدخل الابتسامة إلى نفسي أحيانا، ومما أحاول تذكره وقت الشدة والأزمات، وخاصة عند صعوبات التعامل مع البشر حادثتان عن الأستاذ أبي سليم:

القصة الأولى، أن أبا سليم الذي كان يعمل في تربية الشباب، وتهذيب النفوس في دمشق وخارج دمشق، وبعد أن اضطرته الأحداث في سوريا للخروج والعيش في الأردن، أنه ربما شارك في الأردن بتسيير مصنع لقصّ الصخر، وربما يُسمونه "مقلع". فأذكر أنه قال يوما "هل تعلم يا مأمون، قصّ الصخر أسهل من تربية الإنسان وتهذيب النفس البشرية! ففي قصّ الصخر يمكنك أن تطلب سماكة الصخرة التي تريدها اثنين سنتمتر أو واحد ونصف، فنقصّها لك كما طلبت. أما تغيير النفس البشرية فشئ آخر".

وبعد سنوات قرأتُ في المثنوي لجلال الدين الرومي عبارة مشابهة للمعنى الذي استفاده العم أبو سليم من تجارب حياته. حيث يقول الرومي :

"فكسر الصنم أمر يسيرٌ بالغ اليسر، أما استسهال السيطرة على النفس فجهل وأيُّ جهل!" (المثنوي: جـــلال الـــدين الرومي، الجزء الأول، صفحة 146)

والقصة الثانية رواها لي الصديق الصدوق المهندس المعماري المغربي العربي بوعياد، أن أبا سليم سأله مرة، وهو يعلم أنه مهندس معماري: "لو قمتَ وتعبتَ في تشييد بناء شامخ كبير، وبعد كل الجهد والتعب، جاء من عبث بقواعد البنـــاء فأزاح لبنة أو لبنتين، فتهدم البناء، فماذا أنت فاعل؟"

وبعد شئ من التفكير، وكي يستفيد المهندس العربي من درس تجربة الأستاذ في الحياة فلا يفوّتها على نفسه، قال لـــه "لا أدري. ماذا عليّ أن أفعل؟"

فقال أبو سليم بكل هدوء وثقة وتفاؤل وهو ينظر للأفق البعيد بعينين واثقتين ثاقبتين: "تبدأ بالبناء من جديد، ولكن تعمد لتقوية أساس البناء كي لا يعبث به أحد مجددا".

يا له من درس بليغ جدير بالتأمل والتدبرّ لكل من يريد العمل والبناء في هذه الحياة، على ما فيهـــا مـــن تحـــديات وعقبات يجب أن لا تغيب عن ذهن العاملين.

استراحة المجاهد العنيد عيد!

في يوم الخميس 7 محرم 1431 الموافق 2009/12/24 توفي الأستاذ محمد عيد البُغـــا أو الأخ أبـــو ســـليم في مستشفى في عمان، ودفن هناك، رحمه الله تعالى.

ما أحسب أن الأستاذ الراحل أبا سليم، ومن خلال متابعة ومعايشة سيرة حياته أنه رجل يتطلع للمجد والـــذكرى بين الناس وأمام التاريخ، فهو لم يطلب ذلك، بل نفر منه في حياته، فكيف يرضاه لنفسه بعد موته، وقد أفضى إلى خالقه. وما أحسبه إلا أنه مكتفٍ بما عند ربه الكريم، وبما في قلوب إخوانه من المحبة والتقدير والاحترام والدعوة الصادقة في ظهر الغيب.

وكما يقول الأستاذ عصام العطار، والذي كان على الدوام محط ثقة واحترام وتقدير ومحبة الأستاذ أبي سليم [6]:

ومـــا أبـــالي إذا التـــــاريخ أنصَـــفني ... أو جارَ في حُكمِهِ أو ضلّ أو كذبا

وما أبـــالي لســـانَ الدهـــر تـــوّجنـــي ... بالحمدِ أم أعملَ الأنيابَ والقـــُضُبا

اللهُ قصـــدي وهذا الكـــونُ أجمَـــعُـــهُ ... لم يَسْتثِر رَغباً في النفسِ أو رَهَبا

حَسْـــبي طـــَهارةُ قـــلبي في مقاصِـــدِهِ ... والنهْجُ ما رَضيَ الرحمنُ أو طلبا

إن نِلتُ مرضاتـــَهُ فالشمسُ دون يدي ... فكيفَ أقـــبَلُ في آمالِيَ الشـــُّهُـــبا

رحم الله شيخنا ومربينا ومعلمنا أبا سليم، وعوّض عنه الأمة رجالاً أفذاذا مثله، وصبّر أهله وأسرته وأبناءه وأحبابه، وأصلح في ذريته ممن عرفت منهم من أبنائه في أوروبا الأشقاء سليم وعمر وخالد ، وكما يقال عندنا في بـــلاد الـــشام "متعوب عليهم"!.

رجاء وأمل:

لم أعرف الكثير الكثير عن الراحل أبي سليم، ولو عرفت لكتبت المزيد، وكلي رجاء وأمل ممن يعرف عنه أكثـــر أن يكتب عنه وعن أمثاله، لنجدد في حياتنا نحن المسلمين أدب كتابة سير الرجال (والنساء) [7]، سواء كانت سير ذاتيـــة أو غير ذاتية، لتكون هذه الكتابات دروسا وعبرا للأجيال الشابة، تتعلم منها دروس الكبار، ما أصابوا فيه وما أخطؤا، ومـــا نجحوا فيه وما لم ينجحوا.

ملاحظات:

(1) اختصاصي في الطبّ النفسي، محاضر في جامعة بلفاست، أيرلندا الشمالية

(2) الحجاز: منطقة في وسط مدينة دمشق، وتسمى بمنطقة الحجاز بسبب وجود محطة القطار الرئيسية في دمشق والتي تسمى محطة الحجاز لأن القطار منها كان يصل دمشق بحجاز السعودية

(3) محمد عيد البغا رحمه الله بقلم عصام العطار ، الدار الإسلامية للإعلام.

(4) أخي أبو سليم بقلم الأستاذ زهير الشاويش ، الدار الإسلامية للإعلام.

(5) قصيدة ثورة الحق ل عصام العطار، الدار الإسلامية للإعلام.

(6) كتاب كلمات، الجزء الأول، عصام العطار، الدار الإسلامية للإعلام.

(7) أحد معاني الرجال عند أستاذنا العلامة د. هيثم الخياط أنه يتضمن الرجال والنساء. راجع كتابه النافع والجريئ "المرأة المسلمة وقضايا معاصرة" سفير الدولية للنشر. 2006



صورتي مع الأستاذ أبي سليم عندما زرته في بيته في عمان أوائل عام 2007

أحببت أن أشارك بها من لم ير الراحل منذ مدة قريبة أو بعيدة، أو لمن لم يره في حياته!